دور اللغة في إنتاج المعنى وبناء الإنسان

د. عمر عتيق

أستاذ دكتور في جامعة القدس المفتوحة

فلسطين

هل اللغة مكتسبة أم خلق وإبداع؟

متى تكون اللغة اكتسابا؟ ومتى تكون خلقا وإبداعا؟

تؤسس هذه الأسئلة لسؤال محوري قادم...

ليس من اليسير قبول ما اتفق عليه علماء اللغة أن الإنسان يكتسب اللغة من أسرته ومن محيطه الاجتماعي قبولا مطلقا؛ لأن اللغة في مرحلة الطفولة تختلف عن لغة الإنسان في مراحل النضوج العقلي، فالطفل يحتاج إلى تعلم آلية النطق ومعرفة دلالة الألفاظ على المسميات، ولكن مرحلة النضوج لا تقتضي هذا الأمر. وتسعفنا نظرية التوليد والتحويل التي انبثقت عنها الكفاية والأداء عند تشومسكي في تعليل رفض قبول اكتساب اللغة اكتسابا مطلقا، إذ يرى تشومسكي أن القدرات العقلية والفسيولوجية لدى الإنسان قادرة على توليد اللغة وخلقها والتعبير عن الأفكار دون الحاجة إلى الاكتساب والتعلم من الآخرين، فاللغة عند تشومسكي غير مكتسبة ولا موروثة. وأطلق تشومسكي على القدرات الفسيولوجية والعقلية الباطنية الخلاقة مصطلح التوليد، وعلى التعبير عن الفكر (كتابة أو شفويا) مصطلح التحويل الذي يمّكن المتكلم من التعبير عن أفكاره بطرائق تركيبية كثيرة، وسمى المصطلح الأولى (البنية العميقة)، والمصطلح الثاني (البنية السطحية)، والبنية العميقة هي الكفاية، والبنية السطحية هي الأداء.

ويمكن تعزيز نظرية تشومسكي بالتراكيب اللغوية المبتكرة التي يعبر بها شخص ما دون أن يسمع التراكيب نفسها من غيره، سألني صديق حينما التقيته بعد غياب طويل: (أشبت؟)، أجبت: (هذا زهر الانتظار)، لم أفكر مسبقا بهذا التركيب ولم يخطر في ذهني من قبل ولم أسمعه من أحد. ومن المرجح أن تشكيل صورة فنية مبتكرة لشاعر دليل ثان على القدرة الخلاقة المبتكرة في التعبير. وكذلك الفكر الخلاق المبتكر الذي يضيف للمعرفة الإنسانية رؤى جديدة، فالفكر المبتكر لا ينفصل عن اللغة المبتكرة. عطفا على الرؤية السابقة فإن الإنسان قادر على ابتكار اللغة والفكر دون الحاجة إلى الإفادة من الآخرين.

ينبثق عما تقدم السؤال المحوري القادم

ما التحديات التي تواجه الخلق اللغوي، والإبداع الفكري؟

أعتقد أن حرية التفكير والبعد عن المؤثرات السلبية تضمن إنتاج اللغة المنشودة والفكر التنويري التجديدي. ولكن في مجتمعنا العربي قلما تتوافر الحرية المطلقة في التفكير أو التعبير عن الرأي بسبب خطاب السلطة المركزية للخطاب الديني (السلفي) والسياسي (الدكتاتوري) والاجتماعي (الموروث السلبي). هذه المعيقات السلفية والسياسية والاجتماعية تؤثر سلبيا على وظيفة اللغة في بناء الإنسان وتنمية المجتمع، لأن هذه السلطات الثلاث تمتلك معجما لغويا مثقلا بالمصطلحات والتعبيرات والشعارات التي ترفض ظهور أي بدائل لغوية.

ويتوزع موقف الإنسان العربي من الخطاب اللغوي للسلطة المركزية على ثلاثة أنماط؛ النمط الأول: الرفض والمواجهة، إذ يستمر المجددون في توليد خطاب لغوي فكري تجديدي تنويري متحملين تبعات رفضهم فإما أن يُشتم ويُعنف، أو يتهم بالانحراف والزندقة والتكفير من أقطاب الخطاب السلفي أو يتهم بالتخوين من السلطة السياسية أو يتهم بالانحراف الأخلاقي من أوصياء الموروث الاجتماعي. والنمط الثاني: الاستلام ورفع الراية البيضاء أمام هجمة خطاب السلطة الأبوية الفكرية المركزية التي تسبب الخوف والرعب اللذين ينجمان عن إرهاب فكري يعطّل إنتاج اللغة الخلاقة والفكر التنويري، ومن البدهي أن الإنسان الخائف لا يستطيع توليد لغة وفكر، وتبقى القدرة التوليدية التحويلية للغة والفكر معطلة مرهونة بمعيقات السلطة الأبوية الفكرية. والنمط الثالث: الاستجابة السلبية لأطروحات فكرية لأقطاب السلطات الثلاث (الدينية والسياسية والاجتماعية)، فيصبح المستجيب متلقيا سلبيا، ومستهلكا وجامدا ومسوّقا لفكر سلبي ظلامي، وتتعطل قدرته اللغوية والفكرية التوليدية، كما تتقزم قدرته اللغوية التحويلية، لأنه يصبح عبدا للنقل محروما من نعمة العقل.

كيف يؤثر الأسلوب اللغوي للسلطة الأبوية في إجهاض الخلق اللغوي والإبداع الفكري؟

أكاد أجزم أن الجسارة اللغوية والانزياح في التعبير عن المعيار اللغوي الأبوي هو السبب في اتهام المبدعين (شعراء ومفكرين) في عصور زمنية مختلفة بالكفر والزندقة، وهو السبب في قتلهم أو سجنهم، إذ إن خروج أبي العلاء المعري عن المنظومة اللغوية الأبوية في مجتمعه أدى إلى تشكل أفق فكري فلسفي في شعره تجاوز الفهم العام للمجتمع الأبوي في زمنه، فاتهموه بالزندقة ؛لأنهم عجزوا عن تفكيك البناء اللغوي، والوصول إلى البنية الفكرية العميقة. إن الذائقة السمعية أو القرائية في زمن المعري لم ترتق إلى المستوى الفكري \ الفلسفي لشعره.

وامتد سلطان المؤسسة الدينية إلى مدى لم تبلغه المؤسسة الأكاديمية؛ فلاحقت المؤسسة الدينية الكلمة والجملة والفقرة والنص وما بين السطور. وسعت إلى إخراج مجموعة الجمل التراثية الثقافية من الخدمة نحو (أهل الاختصاص\ أهل الصنعة\ وأصحاب المعرفة)، وأتبعت ذلك بإحياء جمل مضادة نحو (حاطب ليل\ يرمي الكلام على عواهنه\ لكل ساقطة لاقطة) وتسليط هذه الجمل على الدراسات التراثية التي تعزز حرية الإبداع وخروجه من سلطة الدين والأخلاق، ثم تبع ذلك ما هو أنكى وأشد نحو التهم التي تُوجه للكتّاب والنقاد (في دينه رقة\ في دينه ضعف\ ليس من أهل الصلاح والتقوي). [1]

ويعي أرباب السياسة وأقطاب الفكر السلفي، وسدنة الطائفية وزعماء القبلية أن منظوماتهم اللغوية وما تشتمل عليه من شعارات ومقولات تضمن لهم الاستمرارية، والقبول لدى عامة الناس، ولهذا يحرصون على أن تكون "اللغة الأبوية لغة مناسبات وطقوس لا لغة بحث وحوار، إنها أداة تجويد وغناء، تخلق في نفس السامع حالة من الطرب او الحماسة، من الفرح او الغضب، ونادرًا، حالة من التفكير الهادئ والعودة إلى الذات. إنها بذلك لغة جماعية تنفي الفرد والوعي الذاتي وتستبدلهما بالوعي الجماعي. إنها انعكاس السلطة الأبوية والوعي البطريركي"[2]

ومن السهل تعزيز ما تقدم برؤية هشام شرابي حينما يتحدث عن انعكاس الواقع الثقافي الاجتماعي النفسي الذي يتبنى الفكر الأبوي الخانق الذي يرفض كل تغيير في اللغة والفكر، ولا يرضى إلا بما هو مقبول أو موروث.[3]

---

[1]) انظر : عبد المطلب ، محمد : القراءة الثقافية .ص80

[2]) انظر: شرابي، هشام: النقد الحضاري للمجتمع العربي في نهاية القرن العشرين، ص18

[3]) انظر: المرجع نفسه ص15

وتكمن خطورة التجديد اللغوي في خلخلة الأسس الفكرية للسلطة اللغوية الأبوية، فلا يخفى أن اللغة حامل ومحمول، أو دال ومدلول، و"للغة دور مهم في الانتقال من خطاب تقليدي إلى خطاب نقدي، وهذا ما يمهد له النقد الحضاري على صعيد اللغة، وذلك أن نقد اللغة السائدة يعني نقد الأساس الذي تنبني عليه الأيدولوجيا القائمة، في حين أن البقاء ضمن النسق التعبيري السائد يتيح الفرصة لاستمرار الأيدولوجيا المرتبطة بذلك النسق.[4] ولا يمكن مجابهة الواقع السياسي والثقافي المهيمن في المجتمع الأبوي مجابهة حقيقية من داخله من ضمن إطاره الفكري والسياسي ومن خلال لغته التقليدية، فالمجابهة الحقيقية لا تحدث إلا بالخروج من الأطر الأبوية وباستعمال لغة تختلف عن لغة السلطة وتكون بذلك قادرة على خلخلة الفكر المهيمن وإقامة أسس وعي جديد.[5]

بات جليا أن المواجهة بين اللغة الأبوية وما تُضمره من بنى فكرية، واللغة الجديدة وما تبشر به من تغيير مطلب حاسم من أجل التخلص من الكبت الفكري، والظلم الاجتماعي، والقهر السياسي، والتسلط الديني السلفي؛ لأن "كل إرادة تتجه إلى نقل المجتمع من حال إلى حال تجد نفسها في مواجهة النسق اللغوي القائم، ويكون عليها نقدُه كجزء من الوضع الشامل الذي تسعى إلى تغييره. ولا غنى عن نقد اللغة التي يعتمدها النظام الأبوي كجزء من النقد الشامل لهذا النظام، كما أن الانتقال من النظام الديمقراطي يتطلب لغة جديدة"[6]. ويتساءل هشام شرابي في صميم هذه المواجهة اللغوية: "هل يمكن الدخول في الحداثة بواسطة لغة غير حديثة، لغة مازالت في مرحلة ما قبل الحداثة، بمفاهيمها ومصطلحاتها وأطرها الفكرية؟"[7]

يرى بعضهم أن أول عشر كلمات تمتلك القدرة على التأثير والإثارة على المتلقي، وتضاعف يقظته الفكرية في متابعة الخطاب المقروء أو المسموع، وسواء كانت عشر كلمات أو أكثر فإن التقنية اللغوية لاستهلال أي خطاب ترتبط بمدى تهيئة المتلقي وانجذابه أو عزوفه وخموله. ومن المعلوم أن تكرار الاستهلال في أي نص أو خطاب يُحدث مللا وضجرا وفتورا لدى المتلقي، لأن

---

[4]) وقيدي، محمد: النقد الحضاري والنقد الذاتي. ص107/ وينظر النظام الأبوي وإشكالية تخلف المجتمع العربي. ط4، دار نلسن، بيروت، 2000، ص 186-188

[5]) شرابي، هشام: النقد الحضاري للمجتمع العربي في نهاية القرن العشرين ، ص16

6) انظر: وقيدي، محمد: النقد الحضاري والنقد الذاتي. ص108/ وينظر: كتاب النظام الأبوي وإشكالية تخلف المجتمع العربي. ط 4، دار نلسن، بيروت، 2000، ص 186

7) شرابي، هشام: النقد الحضاري للمجتمع العربي في نهاية القرن العشرين. ص80

النفس الإنسانية مطبوعة على التجديد والتغيير لتقبل المضمون الذي يلي الاستهلال أو التمهيد، فالتجديد في الاستهلال هو المؤثر الرئيس في استجابة المتلقي للخطاب.

يلتزم دعاة الخطاب السلفي بالتحميدات الدينية في كل خطاب سواء كان الخطاب في مقام العبادة أو الموعظة أو المناسبات الاجتماعية أو غيرها، فالتحميدات قوالب لفظية جاهزة محفوظة عن ظهر قلب لا تجديد في مضمونها منذ مئات السنين، ولم تختلف في جوهرها الدلالي عن فن التحميدات التي أنشأها عبد الحميد الكاتب في القرن الثاني الهجري في العصر الأموي قبل أكثر من ألف ومئتي سنة. وتهدف هذه التحميدات إلى تهيئة المتلقي ذهنيا ونفسيا وعصبيا للاستجابة، وأزعم أن معظم المتلقين يسمعون التحميدات دون وعي وإدراك لمضمونها بسبب التكرار والاجترار، ولهذا تعد التحميدات بصفاتها السابقة فضاء لغويا يؤدي إلى سبات التفكير وتعطيل حوافز الإدراك والوعي، لأنها تفتقر إلى أدنى مقومات التفاعل بين المتلقي والخطاب.

انتقلت تلك التحميدات من الخطاب الديني السلفي إلى الخطاب الثقافي لدى فئة واسعة من الباحثين والأكاديميين الذين يبدؤون في كتاباتهم ومداخلاتهم الشفوية بتحميدات لا علاقة لها بالموضوع العلمي الذي يتحدثون عنه. أنا لست ضد التحميدات بذاتها، ولكني ضد الفصل بين محتوى التحميدات ومضمون الخطاب الفكري.

قلت سابقا إن القدرة التوليدية والتحويلية لا تحتاج إلى مؤثرات خارجية مكتسبة، ولكنها حتما بحاجة إلى مثيرات ومحفزات ذهنية، لأن القدرات التوليدية التحويلية كامنة في أعماقنا تحتاج إلى التحريك والتحفيز والإثارة والثوير، فهل تملك التحميدات هذه المثيرات والمحفزات؟

بعد التحميدات يأتي مضمون الخطاب السلفي مثقلا– في الغالب– بعبارات لغوية موروثة نحو: (أجمعت الأمة، أجمع العلماء، أجمع جمهور العلماء، أجمع السلف الصالح، أجمع التابعون) لمنع التفكير في صحة الكلام، وتعزيز الفكرة المطروحة، وتثير دلالة الفعل (أجمع) في هذه القوالب اللفظية الجاهزة عددا من الأسئلة الموضوعية؛ عن أي أمة يتحدثون؟ وكيف يمكن تصديق إجماع الأمة على أمر أو قضية خارج التشريع العقائدي والمقاصد الربانية؟ هل جرى استفتاء للأمة الإسلامية في قضية فكرية سلوكية؟ ومن جمهور العلماء؟ هل اتفاق نفر من العلماء في زمن محدد وفي بيئة جغرافية محددة يعد إجماعا للعلماء؟ ومن السلف الصالح؟ وهل يوجد سلف صالح وسلف غير صالح؟ إن خطورة لفظ الإجماع في العبارات اللغوية الموروثة تؤدي حتما إلى تعطيل العقل والتفكير والتدبر، لأن الخروج عن الاجماع المزعوم يعد خروجا عن الدين وإثما عظيما. كيف يمكن بناء فكر تجديدي وإعادة بناء الإنسان، والاسهام في تنمية المجتمع أمام هذا السيل

اللغوي الجارف الذي يهدم أية محاولة في التفكير خارج إطار الإجماع؟ كلما تذكرت كلام القرطبي إن الحديث النبوي ينسخ (يلغي) آية من القرآن الكريم يصيبني الذهول والسخط من لغة الخطاب السلفي، يقول حرفيا: (وحذاق الأئمة على أن القرآن ينسخ بالسنة).

عطفا على التشكيل اللغوي في الخطاب السلفي فإن الخطاب السياسي يقارب الخطاب السلفي في تقنيات الاستهلال، ووطأة الحمولة الدلالية في المضمون، فالخطابان السلفي والسياسي يتفقان في الغاية والهدف ويختلفان في المضمون والأسلوب، أما الهدف فهو تحديد الفضاء النفسي والفكري للمتلقي داخل وهج تعبيرات وطنية تجسد الالتزام الأخلاقي والثقافي بقدسية الأرض، والشهداء، وحتمية العلاقة الوجودية بين الشعب والدولة، فلا يملك المتلقي قدرة على التفكير خارج فضاء الاستهلال المثالي الذي يكرر أيقونات الوفاء والتضحية والأرض والشهداء... الخ. يختار الخطاب السياسي بعناية فائقة أساليب لغوية للتعبير عن المواطنة والمعتقلات ملأى بسجناء الرأي، وسواحل البحار مثقلة بجثث المواطنين الراغبين بالهجرة من الوطن الذي يصفق له أتباع المؤسسة الحاكمة.

ينقل إلى الأمام كيف تؤثر اللغة في تعزيز السلم الأهلي وازدهار النسيج الاجتماعي؟

يتوزع سلوك الإنسان على ثلاثة أساليب للرد على الطرف الآخر حينما ينشب خلاف حول أمر ما، الأول: الرد المادي العنيف بالضرب الجسدي أو باستعمال السلاح. والثاني: الرد اللغوي العنيف بالشتائم والألفاظ النابية. والثالث: الرد اللغوي الهادئ الواعي الذي يندرج في ثقافة الحوار.

لماذا يكثر الرد العنيف المادي واللغوي، ويقل الرد اللغوي الهادئ المتزن؟ هل يسهم المخزون اللغوي في تحديد أسلوب الرد على الطرف الآخر؟ للإجابة عن هذا السؤال المركزي ينبغي أن نعي أن الرد المعلن مسبوق برد مضمر، إذ إن الأساليب الثلاثة تبدأ بانفعالات نفسية نحو التوتر والغضب وغيرهما، وبتغيرات فسيولوجية نحو الانقباض وارتفاع الضغط أحيانا، وتحتاج هذه الانفعالات النفسية والفسيولوجية إلى أسلوب للتعبير عنها، فإذا كان المخزون اللغوي وافرا غنيا متنوعا، وكانت القدرة على صياغة الأساليب اللغوية لافتة وكافية للرد والإفحام والإقناع، فإن الإنسان يكتفي– في الغالب- بالرد اللغوي الهادئ، لأن وقع كلماته وتأثير أساليبه تتيح له أمرين؛ الأول: الرضا عن نفسه والثقة بقدرته على الرد. والثاني: تأثير الرد اللغوي في إسكات الخصم والنيل منه.

كلما كانت اللغة غزيرة متنوعة، والأساليب متعددة استطاع المتكلم اختيار الكلمات المناسبة والأساليب الفاعلة، فالقدرة على الاختيار هي التي تميز شخصا عن غيره وفق نظرية دي سوسير التي تفرق بين اللغة والكلام، فاللغة هي مخزون الكلمات والأساليب في الدماغ. والكلام هو

الممارسة اللغوية، فحينما تكون اللغة المخزونة ناضجة متنوعة فإن المتكلم قادر على اختيار اللغة والأساليب المناسبة للرد. أما إذا كانت اللغة المخزونة في الدماغ قليلة أو ناجمة عن بيئة ثقافية نمطية مغلقة فإن الرد سيكون لفظيا جارحا أو ماديا مؤذيا.

هل تستطيع اللغة مواجهة المخرجات الثقافية الظلامية والسلوكية العنيفة الناجمة عن الخطاب السلفي؟

حينما نملك المفاتيح اللغوية في قراءة القرآن الكريم نفهم المقاصد الربانية في الأحكام الشرعية، وماهية العلاقات الاجتماعية، وعلاقة الفرد بالجماعة، وواجبات الجماعة تجاه الفرد، نفهم كل ما تقدم دون الحاجة إلى رجال دين يمتهنون الفتوى في شؤوننا الشخصية وعلاقاتنا الاجتماعية، ويصطنعون فتاوى تُرضي السلطان بعيدا عن رضا رب السلطان. إن الفقيه الذي لا يتقن أسرار اللغة العربية لا يجوز أن يكون فقيها شرعيا؛ لأن القرآن الكريم إعجاز لغوي، ومعانيه في لغته، ومضامينه في تراكيبه، ومقاصده في سياقه اللغوي الكلي، ومن المعلوم أن كثيرا من العرب آمنوا بالقرآن الكريم بسبب لغته.

لسنا بحاجة إلى فتاوي المذاهب الأربعة لفهم القرآن الكريم إذا امتلكنا ناصية اللغة، وأمسكنا بزمام السياق اللغوي. ولم تستند الفتاوى التي تبيح سفك الدم لأسباب طائفية أو مذهبية أو فكرية على لغة القرآن الكريم الذي يحرص على حرمة الدم واستقرار المجتمع والسلم الأهلي، إنما استندت على اجتهاد وقياس، أليست لغة القرآن الكريم هي الدستور الرباني؟

ما دور اللغة في إنهاء التعصب الديني والطائفي؟

ما تعريف الإسلام؟ ومن المسلم؟ ومتى بدأ الإسلام؟ وهل بدأ الإسلام بالرسالة المحمدية ونزول القرآن الكريم؟

أسئلة شائكة وإجابة سهلة، شائكة بسبب الموروث الفكري المؤسس على النقل وتغيب العقل. وسهلة لأن القرآن الكريم يجيب عنها بوضوح تام. وأعيد طرح السؤال المركزي: هل بدأ المفهوم العقائدي للإسلام برسالة محمد عليه السلام؟.

يُسهم فهم لغة القرآن الكريم في تطهير التلوث الثقافي لدى فئات واسعة من المسلمين تعتقد أن المسلم أفضل من غيره من أتباع الديانات الأخرى، لهذا ينبغي أن نبدأ بمعنى كلمة الإسلام في المعجم، فالإِسْلامُ والاسْتِسْلامُ: الِانْقِيَادُ. والإِسْلامُ مِنَ الشَّرِيعَةِ: إِظهار الْخُضُوعِ وإِظهار الشَّرِيعَةِ وَالْتِزَامُ مَا أَتى بِهِ النَّبِيُّ، ﷺ، وَبِذَلِكَ يُحْقَنُ الدَّمُ ويُسْتَدْفَعُ الْمَكْرُوهُ، ويُقَال: فُلَانٌ مُسْلِمٌ فِيهِ قَوْلَانِ:

أَحدهما هُوَ المُسْتَسْلِمُ لأَمر اللّهِ، وَالثَّانِي هُوَ المُخْلِصُ للّه العبادةَ، مِنْ قَوْلِهِمْ سَلَّمَ الشيءَ لِفُلَانٍ أَي خَلَّصَهُ، وسَلِمَ لَهُ الشيءُ أَي خَلَصَ لَهُ.

هل توجد ديانات سماوية مختلفة؟ هل دين الأنبياء جميعا هو الإسلام؟ هل يعني الإسلام الإيمان بوحدانية الله عز وجل؟

يؤكد التدبر في الآيات القرآنية التي ترد فيها ألفاظ (الإسلام ومسلم ومسلمين ومسلمون) ما يلي:

1- كان إبراهيم عليه السلام مسلما بدليل قوله تعالى (وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ(132 البقرة) وقوله: (مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (6)آل عمران

2- كان موسى عليه السلام مسلما بدليل قوله تعالى: (وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ (84) يونس

3- كان المسيح عليه السلام مسلما بدليل قوله تعالى: (فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللّهِ آمَنَّا بِاللّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (آل عمران 52) وقوله (وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوَاْ آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ (المائدة 111)

4- كان يعقوب وابناؤه مسلمين بدليل قوله تعالى: (أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـهَكَ وَإِلَـهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِلَـهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ(البقرة 133)

5- كان يوسف عليه السلام مسلما بدليل قوله تعالى: (رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (101) يوسف

6- نفر من الجن مسلمون بدليل قوله تعالى مخبرا عن الجن: (وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا(14 الجن)

ألا تثبت لغة الآيات السابقة أن معنى الدين عند الله هو الإسلام أن القرآن الكريم رسالة مكملة وخاتمة الديانات السابقة؟

الا يؤكد ما سبق أن الاختلاف بين الديانات من صنع البشر؟

وتأسيسا على الآيات الكريمة التي تؤكد حرية المعتقد الديني فإن قوله تعالى: (إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (أل عمران 19) (وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (آل عمران 85)، (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا (3 المائدة) يحتاج مراجعة في مفهومه ودلالته، لأن المعنى المراد لا يخص المسلمين أتباع رسالة محمد عليه السلام، وإنما المراد كل من انقاد واستسلم لرب العالمين، واعتمادا على هذه الحقيقة نستطيع الإجابة عما يلي: لماذا لم يقل رب العالمين يا أيها المسلمون أو يا أيها الذين أسلموا؟ ولماذا خاطب القرآن الكريم أصحاب الرسالة المحمدية المباركة بقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا)؟ إن الفهم القاصر الذي يربط معنى الإسلام بالرسالة المحمدية يؤدي حتما إلى قطع الصلة الدينية الزمنية بين المسلمين أتباع سيدنا محمد والمسلمين قبل سيدنا محمد.

وفي هذا السياق نطرح السؤال الآتي: ما معنى الإسلام خاتم الرسالات ومحمد عليه السلام خاتم الأنبياء؟

واعتمادا على المعنى اللغوي للفظ الإسلام، والسياق اللغوي الذي ورد فيه لفظ الإسلام في القرآن الكريم فإن الدين هو الخلاص والسعادة للإنسانية جمعاء. ولكن ليس الدين الذي يتحدث فيه رجال الدين في الديانات الثلاثة. وإنما الدين الذي جاء في وصايا موسى وتعاليم المسيح ورسالة محمد عليهم السلام. إنه دين المنظومات الأخلاقية التي توحد الناس جميعا. والعبادات والشعائر التي تميز أتباع الديانات الثلاثة. ولهذا جاء الإسلام خاتم الرسالات السماوية ومحمد عليه السلام خاتم الأنبياء لأن رسالة السماء قد اكتملت بتراكم المنظومات الأخلاقية من زمن نوح عليه السلام إلى زمن محمد عليه السلام. فكل نبي أضاف جانبا معرفيا وعقائديا وأخلاقيا. ولم يعد الإنسان بحاجة إلى نبي جديد لأن الإنسان أصبح يمتلك أداة المعرفة وهي العقل ويمتلك القدرة على التمييز. ولهذا جعل رب العالمين الإنسان خليفة في الأرض.

عطفا على ما تقدم من الصعب أن نصدق ما نسب إلى الرسول عليه السلام: (أمِرْتُ أَن أُقاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَن لا إلهَ إلاَّ اللَّهُ وأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، ويُقِيمُوا الصَّلاةَ، ويُؤْتُوا الزَّكاةَ، فَإذا فَعَلوا ذلكَ، عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وأَمْوَالَهم إلاَّ بحَقِّ الإسلامِ، وحِسابُهُمْ عَلى اللَّهِ) (متفق عليه)، لأن عددا من الآيات القرآنية تؤكد حرية المعتقد الديني وتنفي مضمون الحديث السابق كما في قوله تعالى: (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ) [البقرة: 256] وقوله (وَقُلِ الْحَقُّ مِن

رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ) (29 الكهف) وقوله (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (يونس99) .

هل تسهم اللغة في مواجهة طغيان السلطة الذكورية وتحقيق العدالة الاجتماعية؟

يتوهم عامة الناس أن رب العالمين فضل الرجل على المرأة، حينما يسلخون قوله تعالى: (وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى) من سياقه وحاضنته اللغوية. ولو كان عامة الناس يفقهون في علم البلاغة وفي الأصول البسيطة للتشبيه، لما استشهدوا بالآية على تفضيل الرجل على المرأة، لأن دلالة أركان التشبيه تؤكد أن المرأة أفضل من الرجل في قوله تعالى: (وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى)، فالمشبه الرجل، والمشبه به المرأة، ومن المتفق عليه بلا خلاف أن المشبه به أقوى وأفضل وأعلى من المشبه، ففي قولنا: وجه فلان كالقمر، فصفة الإضاءة والإشراق في المشبه به القمر أوضح وأقوى وأفضل من صفة الإضاءة في المشبه (الوجه)، وهكذا في أي تركيب لغوي يفيد التشبيه.

نحتاج إلى السياق اللغوي الكلي لإثبات أن المرأة أفضل من الرجل في قوله تعالى: (فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ)

حار المفسرون في تفسير الآية((وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى))، فريق منهم قال: إن الآية من كلام أم مريم امرأة عمران، وفريق قال: إن الآية من كلام رب العالمين. وفي القولين تأكيد أن الأنثى أفضل من الذكر في الآية، أما الفريق الأول فبعضهم قرأ قوله تعالى: (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ) بضم التاء أي-لَيسَ الذَّكَرُ الَّذِي طَلَبْتُهُ وَرَجَوْتُهُ مِثْلَ الْأُنْثَى الَّتِي عَلِمَهَا الله وَأَرَادَهَا وَقَضَى بِهَا. وَلَعَلَّ هَذِهِ الْأُنْثَى تَكُونُ خَيْرًا مِنَ الذَّكَرِ، إِذْ أَرَادَهَا اللَّهُ، سَلَّتْ بِذَلِكَ نَفْسَهَا. وَبَدَأَتْ بِذِكْرِ الْأَهَمِّ فِي نَفْسِهَا، وَإِلَّا فَسِيَاقُ الْكَلَامِ أَنْ تَقُولَ: وَلَيْسَتِ الْأُنْثَى كَالذَّكَرِ، فَتَضَعُ حَرْفَ النَّفْيِ مَعَ الشَّيْءِ الَّذِي عِنْدَهَا، وَانْتَفَتْ عَنْهُ صِفَاتُ الْكَمَالِ لِلْغَرَضِ الْمُرَادِ.

وقرأ الفريق الثاني (وضعتْ) بسكون التاء، فالمعنى إِخْبَارٌ مِنَ اللَّهِ بِأَنَّهُ أَعْلَمُ بِالَّذِي وَضَعَتْهُ عَلَى سَبِيلِ التَّعْظِيمِ لِهَذِهِ الْمَوْضُوعَةِ، وَالْإِعْلَامُ بِمَا عَلِقَ بِهَا وَبِابْنِهَا مِنْ عَظِيمِ الْأُمُورِ، إِذْ جَعَلَهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ. وَوَالِدَتُهَا جَاهِلَةٌ بِذَلِكَ لَا تَعْلَمُ مِنْهُ شَيْئًا. ينظر: البحر المحيط، ج3، ص105.

وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ: بِمَا وَضَعْتِ، بِكَسْرِ تَاءِ الْخِطَابِ، خَاطَبَهَا اللَّهُ بِذَلِكَ أَيْ: إِنَّكِ لَا تَعْلَمِينَ قَدْرَ هَذِهِ الْمَوْهُوبَةِ، وَمَا عَلِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ عِظَمِ شأنها وعلوّ قدرها. ينظر: البحر المحيط ، ج3 ، ص105

وَالْمَقْصُودُ مِنْهُ كذلك: أَنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ مِنْهَا بِنَفَاسَةِ مَا وَضَعَتْ، وَأَنَّهَا خَيْرٌ مِنْ مُطْلَقِ الذَّكَرِ الَّذِي سَأَلَتْهُ. ويضيف ابن عاشور وَلَيْسَ الذَّكَرُ الَّذِي رَغِبَتْ فِيهِ بِمُسَاوٍ لِلْأُنْثَى الَّتِي أُعْطِيَتْهَا لَوْ كَانَتْ تَعْلَمُ عُلُوَّ شَأْنِ هَاتِهِ الْأُنْثَى. ابن عاشور، ج3، ص 233

يقول الشعراوي: إن الحق يقول لها: لا تظني أن الذكر الذي كنت تتمنينه سيصل إلى مرتبة هذه الأنثى، إن هذه الأنثى لها شأن عظيم. الشعراوي ج3، ص 1436

لا يخفى أن المعاينة السياقية واللغوية والبلاغية لقوله تعالى ((وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى)) تنفي الفهم الشائع أن رب العالمين فضل الرجل على المرأة . وبهذا الفهم تتحقق العدالة الاجتماعية، وتعزز دور المرأة في تنمية المجتمع.

ينتزع الخطاب السلفي جزءا من آية من سياقها اللغوي، ويستعملونها سلطة لغوية طاغية لتعزيز تسلط الفكر الذكوري في المجتمع والسيطرة على المرأة، نحو قوله تعالى: (الرِّجالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّساءِ...) ليوهموا عامة الناس أن سلطة الرجل على المرأة تفويض رباني يتيح للرجل طمس شخصية المرأة وحبسها في بيتها، ومنعها من أبسط الحقوق الاجتماعية والإنسانية، ولا يخفى أن ربط الآية السابقة بسياقها ينفي السلطة المطلقة للرجل على المرأة في قوله تعالى: (الرِّجالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّساءِ بِما فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ وَبِما أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوالِهِمْ)، فقوامة الرجل على المرأة مشروطة بالإنفاق، لأن الباء في (بِما أَنْفَقُوا) سببية، فالرجال قوامون على النساء بسبب إنفاقهم المال وتحمل مسؤولية العمل وتوفير احتياجات الأسرة. وقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: فَهِمَ الْجُمْهُورُ مِنْ قَوْلِهِ تعالى: (وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ)، أَنَّهُ مَتَى عَجَزَ عَنْ نَفَقَتِهَا لَمْ يَكُنْ قَوَّامًا عَلَيْهَا، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ قَوَّامًا عَلَيْهَا كَانَ لَهَا فَسْخُ الْعَقْدِ لِزَوَالِ الْمَعْقُودِ الَّذِي شُرِعَ لِأَجْلِهِ النِّكَاحُ. وَفِيهِ دَلَالَةٌ وَاضِحَةٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ على ثُبُوتِ فَسْخِ النِّكَاحِ عِنْدَ الْإِعْسَارِ بِالنَّفَقَةِ وَالْكُسْوَةِ، وَهُوَ مَذْهَبُ مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ.

ويحمل لفظ القوامة معنى حماية الرجل للمرأة والدفاع عنها وتوفير احتياجاتها المادية، ففي المعجم (فلان قائمٌ بكذا إذا كان حافظا له متمسكا به. وقَيِّمُ المرأَةِ: زوجها لأَنه يَقُوم بأَمرها وما تحتاج إليه). وذهب ابن عاشور إلى أن قِيَامُ الرِّجَالِ عَلَى النِّسَاءِ هُوَ قِيَامُ الْحِفْظِ وَالدِّفَاعِ، وَقِيَامُ الِاكْتِسَابِ وَالْإِنْتَاجِ الْمَالِيِّ، فَالتَّفْضِيلُ هُوَ الْمَزَايَا الَّتِي تَقْتَضِي حَاجَةَ الْمَرْأَةِ إِلَى الرَّجُلِ فِي الذَّبِّ عَنْهَا وَحِرَاسَتِهَا. كَمَا قَالَ عَمْرُو بْنُ كُلْثُومٍ:

يَقُتْنَ جِيَادَنَا وَيَقُلْنَ لَسْتُمْ بُعُولَتَنَا إِذَا لَمْ تَمْنَعُونَا

لا يُحسن عامة الناس فهم جملة (فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ) في الآية السابقة، ويتوهمون أن التفضيل يقتصر على تفضيل الرجل على المرأة، ولكن الدلالة اللغوية تؤكد أن التفضيل يشمل الرجل والمرأة، أي فضل الله رجالا على نساء، وفضل الله نساء على رجال، وهذا التفسير اللغوي ينسجم مع العدالة الربانية، وماهية العقل البشري، وَالْمُرَادُ بِالْبَعْضِ الْأَوَّلِ الرِّجَالُ، وَبِالثَّانِي النِّسَاءُ.

فَرُبَّ أُنْثَى فَضَلَتْ ذَكَرًا. وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْوِلَايَةَ تُسْتَحَقُّ بِالْفَضْلِ لَا بِالتَّغَلُّبِ وَالِاسْتِطَالَةِ البحر المحيط ج 3، ص 623.

ونبه صاحب تفسير البحر المحيط أن الْمُرَاد بِالرِّجَالِ هُنَا مَنْ فِيهِمْ صَدَامَةٌ وَحَزْمٌ، لَا مُطْلَقُ مَنْ لَهُ لِحْيَةٌ. فَكَمْ مِنْ ذِي لِحْيَةٍ لَا يَكُونُ لَهُ نَفْعٌ وَلَا ضُرٌّ، وَلِذَلِك يُقَالُ: رَجُلٌ بَيِّنُ الرُّجُولِيَّةِ وَالرُّجُولَةِ. وَلِذَلِك ادَّعَى بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّ فِي الْكَلَامِ حَذْفًا تَقْدِيرُهُ: الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ إنْ كَانُوا رِجَالًا. البحر المحيط ج 3، ص 623.

ينتصر الآلوسي في تفسيره روح المعاني لتفضيل المرأة على الرجل في الآية بقوله: وعدل عن الضمير فلم يقل سبحانه بما فضلهم الله عليهن للإشعار بغاية ظهور الأمر وعدم الحاجة إلى التصريح بالمفضل والمفضل عليه بالكلية، وقيل: للإبهام للإشارة إلى أن بعض النساء أفضل من كثير من الرجال روح المعاني. ج 2، ص 23

لماذا جاء الفعل (أَنْفَقُوا) بِصِيغَةِ الْمَاضِي ولم يأت بصيغة المضارع؟ فِي الْمُجْتَمَعَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ مُنْذُ الْقِدَمِ، كان الرِّجَالُ هُمُ الْعَائِلُونَ لِنِسَاءِ الْعَائِلَةِ مِنْ أَزْوَاجٍ وَبَنَاتٍ. وَأُضِيفَتِ الْأَمْوَالُ إِلَى ضَمِيرِ الرِّجَالِ (مِنْ أَمْوالِهِمْ) لِأَنَّ الِاكْتِسَابَ مِنْ شَأْنِ الرِّجَالِ منذ عُصُورِ الْبَدَاوَةِ بِالصَّيْدِ وَبِالْغَارَةِ وَبِالْغَنَائِمِ وَالْحَرْثِ. ينظر: ابن عاشور، ج5، ص 38 ومن البدهي أن نخلص إلى النتيجة الآتية: إن كانت المرأة هي العاملة التي تملك المال، والقادرة على الإنفاق فيما يتعلق بشؤون البيت وتربية الأولاد، والزوج في هذه الحالة عاطل عن العمل، لا يملك مالا ينفقه، فلا فضل للزوج أو الرجل في القوامة. وإن كان الاثنان الزوج والزوجة يعملان وقادرين على الانفاق، فإن القوامة تصبح مشتركة، ويعتمد هذا الفهم اللغوي الدلالي على باء السببية في قوله تعالى (وَبِما أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوالِهِمْ)، لأن الإنفاق يصبح مسؤولية مشتركة، ويصبح المال لهما، وليس (لهم) أي الرجال وحدهم.

ولا يصح أن تأخذ «قوام» على أنها السيطرة؛ لأن مهمة القيام جاءت للرجل بمشقة، وهي مهمة صعبة عليه أن يبالغ في القيام على أمر من يتولى شئونهن. وما دمنا نكدح ونتعب للمرأة فلا بد أن تكون للمرأة مهمة توازي ذلك وهي أن تكون سكناً له، وهذه فيها تفضيل للنساء أيضاً. الشعراوي، ج 4، ص 2192

أعتقد جازما أن الأخذ بالسياق غير اللغوي أي ما يسمى أسباب النزول للآية الخاصة بقوامة الرجل يتنافى مع المقصد الرباني وفق التفسير اللغوي الذي لا يخفى على مَنْ يفهم أبسط دلالة اللغة وقواعدها وفق ما تقدم بيانه، قيل إن قوله تعالى: (الرِّجالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّساءِ بِما فَضَّلَ اللَّهُ

بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ وَبِما أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوالِهِمْ) نَزَلَتْ فِي سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ وامْرَأَتِهِ حَبِيبَةَ بِنْتِ زَيْدِ بْنِ أَبِي زُهَيْرٍ، وَذَلِكَ أَنَّهَا نَشَزَتْ عَلَيْهِ فَلَطَمَهَا، فَانْطَلَقَ أَبُوهَا مَعَهَا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: أَفْرَشْتُهُ كَرِيمَتِي فَلَطَمَهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لِتَقْتَصَّ مِنْ زَوْجِهَا»، فَانْصَرَفَتْ مَعَ أبيها لتقتصّ منه فَجَاءَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ارْجِعُوا هَذَا جِبْرِيلُ أَتَانِي بِشَيْءٍ»، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَرَدْنَا أَمْرًا وَأَرَادَ اللَّهُ أَمْرًا، وَالَّذِي أَرَادَ اللَّهُ خَيْرٌ»، وَرَفَعَ الْقِصَاصَ. البغوي، ج1، ص 611

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّهُ قَالَ: «كُنَّا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ نَغْلِبُ النِّسَاءَ فَلَمَّا قَدِمْنَا عَلَى الْأَنْصَارِ إِذَا قَوْمٌ تَغْلِبُهُمْ نِسَاؤُهُمْ فَطَفِقَ نساؤنا يَأْخُذن مِنْ أَدَبِ الْأَنْصَارِ فَصَخِبْتُ عَلَى امْرَأَتِي فَرَاجَعَتْنِي فَأَنْكَرْتُ أَنْ تُرَاجِعَنِي قَالَتْ: وَلِمَ تُنْكِرُ أَن أراجعك فو الله إن أَزوَاج النَّبِي لِيُرَاجِعْنَهُ وَإِنَّ إِحْدَاهُنَّ لَتَهْجُرُهُ الْيَوْمَ حَتَّى اللَّيْلِ فَرَاعَنِي ذَلِكَ وَقُلْتُ: قَدْ خَابَتْ مَنْ فَعَلَتْ ذَلِكَ مِنْهُنَّ ثُمَّ جَمَعْتُ عَلَيَّ ثِيَابِي فَنَزَلْتُ فَدَخَلْتُ عَلَى حَفْصَةَ فَقُلْتُ لَهَا: أَيْ حَفْصَةُ أَتُغَاضِبُ إِحْدَاكُنَّ النَّبِيءَ الْيَوْمَ حَتَّى اللَّيْلِ؟ قَالَتْ: نَعَمْ فَقُلْتُ: قَدْ خِبْتِ وَخَسِرْتِ» الْحَدِيثَ. ابن عاشور، ج 2، ص 397

أما قوله تعالى: (وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ () فيحفظ أنصار الفكر الذكوري المتسلط الجزء الثاني (وَلِلرِّجالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ) من الآية ويمثلون بها، ويغفلون الجزء الأول (وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ)، فقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: تِلْكَ الدَّرَجَةُ إِشَارَةٌ إِلَى حَضِّ الرِّجَالِ عَلَى حُسْنِ الْعِشْرَةِ وَالتَّوَسُّعِ لِلنِّسَاءِ فِي الْمَالِ وَالْخُلُقِ. البحر المحيط ، ج2، ص 461

وَفِي الْآيَةِ احْتِبَاكٌ، فَالتَّقْدِيرُ: وَلَهُنَّ عَلَى الرِّجَالِ مِثْلُ الَّذِي لِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ، فَحَذَفَ مِنَ الْأَوَّلِ لِدَلَالَةِ الْآخِرِ، وَبِالْعَكْسِ. وَكَانَ الِاعْتِنَاءُ بِذِكْرِ مَا لِلنِّسَاءِ مِنَ الْحُقُوقِ عَلَى الرِّجَالِ، وَتَشْبِيهِهِ بِمَا لِلرِّجَالِ عَلَى النِّسَاءِ لِأَنَّ حُقُوقَ الرِّجَالِ عَلَى النِّسَاءِ مَشْهُورَةٌ، مُسَلَّمَةٌ مِنْ أَقْدَمِ عُصُورِ الْبَشَرِ، فَأَمَّا حُقُوقُ النِّسَاءِ فَلَمْ تَكُنْ مِمَّا يُلْتَفَتُ إِلَيْهِ أَوْ كَانَتْ مُتَهَاوَنًا بِهَا، وَمَوْكُولَةً إِلَى مِقْدَارِ حُظْوَةِ الْمَرْأَةِ عِنْدَ زَوْجِهَا، حَتَّى جَاءَ الْإِسْلَامُ فَأَقَامَهَا. وَأَعْظَمُ مَا أُسِّسَتْ بِهِ هُوَ مَا جَمَعَتْهُ هَذِهِ الْآيَةُ.

وَتَقْدِيمُ الظَّرْفِ() لِلِاهْتِمَامِ بِالْخَبَرِ لِأَنَّهُ مِنَ الْأَخْبَارِ الَّتِي لَا يَتَوَقَّعُهَا السَّامِعُونَ، فَقُدِّمَ لِيُصْغِيَ السَّامِعُونَ إِلَى الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ، بِخِلَافِ مَا لَوْ أُخِّرَ فَقِيلَ: وَمِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ لَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَفِي هَذَا إِعْلَانٌ لِحُقُوقِ النِّسَاءِ، وَإِصْدَاعٌ بِهَا وَإِشَادَةٌ بِذِكْرِهَا، وَمِثْلُ ذَلِكَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُتَلَقَّى بِالِاسْتِغْرَابِ، فَلِذَلِكَ كَانَ مَحَلَّ الِاهْتِمَامِ. ابن عاشور ج 2، ص 397

يقول سيد قطب: أحسب أنها مقيدة في هذا السياق بحق الرجال في ردهن إلى عصمتهم في فترة العدة. وقد جعل هذا الحق في يد الرجل لأنه هو الذي طلق وليس من المعقول أن يطلق

هو فيعطي حق المراجعة لها هي! فتذهب إليه. وترده إلى عصمتها! فهو حق تفرضه طبيعة الموقف. وهي درجة مقيدة في هذا الموضع، وليست مطلقة الدلالة كما يفهمها الكثيرون، ويستشهدون بها في غير موضعها في ظلال القرآن، ج1، ص 246

ما دور الكتاب المدرسي في بناء الإنسان وتنمية المجتمع؟

تتوزع دلالة لغة الكتاب المدرسي على مستويين؛ مستوى سطحي معلن تطفو على سطحه الدلالات المعجمية البسيطة. ومستوى مضمر تستقر فيه الدلالات الثاوية في البنية العميقة. ويبدأ تأثير المعاني في ذاكرة الطالب تدريجيا، ثم يتحول المخزون المعلوماتي إلى مفاهيم وسلوك في مواقف محددة دون أن يعي الإنسان أن المفاهيم ومنظومات القيم تشكلت منذ كان تلميذا في المدرسة، وأن الكتاب المدرسي هو المؤثر الأول.

يقتضي اختيار نصوص الكتاب المدرسي وعيا بنيويا يعالج مقتضيات مرحلية وإستراتيجيات مستقبلية لبناء إنسان قادر على تغيير واقع وبناء مستقبل ، فاختيار مضمون الكتاب المدرسي ليس اختيارا عفويا أو ذوقيا انطباعيا.

من يختار موضوعات الكتاب المدرسي؟ هل تكفي الخبرة الزمنية التراكمية للمعلم أم يحتاج الكتاب المدرسي لمتخصصين وخبراء؟ ينبغي أن تتضمن موضوعات الكتاب المدرسي منظومات قيم عليا، نحو الحرية والمواطنة والعدالة واحترام الرأي الآخر. ولا يخفى أن بعض النصوص مثقلة بمعان ودلالات سلبية مضمرة، واللافت أن هذه النصوص تسمى "عيون الأدب العربي" وخاصة في شعر المديح الذي يضفى هالة من القداسة على الممدوح الخليفة والسلطان والأمير فشكل الخطاب المدحي المقديس نسقا ثقافيا مضمرا تسرب من الكتاب المدرسي إلى ذهن الطلبة، وأرى أن هذا الخطاب المقدس مسؤول عن ظاهرة النفاق السياسي في المجتمع العربي. وفي شعر الفخر يكمن نسق ثقافي مضمر مثقل بثقافة التعصب العرقي والقبلي والطائفي والمذهبي، وهو مسؤول عن مخرجات الصراعات العائلية والطائفية. فلغة المدح السياسي المعاصر هي امتداد للقصيدة المدحية في الشعر العربي؟ والنسق المضمر للنفاق السياسي وظاهرة التصفيق وتعليق صور الزعماء مرتبطا بغرض المدح في الشعر العربي؟ لا يخفى أن الشاعر العربي أساء إلى اللغة والقيم في مدح من لا يستحق. ويعد التعصب القبلي العشائري في الوطن العربي امتدادا لنسق ثقافي يشكل حضورا لافتا ومعيبا– برأيي- في غرض الفخر بالقبيلة. من السهل ملاحظة الترابط النسقي بين ظاهرة العربدة السياسية التي اتخذت مسميات عدة في الأقطار العربية

(بلطجية والشبيحة وزعران النظام) من جهة ونسق ثقافي شائع في الشعر العربي نحو قول عمرو بن كلثوم:

لنَا الدُّنْيَا ومَنْ أمْسَى عَلَيْها ونَبْطِشُ حَينَ نَبْطِشُ قَادِرِينا

بُغَاةٌ ظَالِمينَ وَمَا ظُلِمْنَا وَلكِنَّا سَنَبْدَأُ ظَالِمِينَا

هل نبالغ إذا قلنا إن لغة التقزيم والألفاظ الجارحة النابية منتقاة من معجم شعر الهجاء وخاصة في ثقافة الحوار بين النقاد\ نقد النقد\ أحيانا؟ بعض الطيبين يخشى من توجيه ملاحظة لناقد أو شاعر أو كاتب خوفا من سلاطة لسانه لأنه من سلالة جرير والفرزدق والأخطل ومن قبلهم الحطيئة ومن بعدهم بشار بن برد، هؤلاء الشعراء أصحاب أضخم معجم في الشتائم، لم يموتوا بعد لأن لهم أحفادا محسوبين على أقطاب الثقافة العربية.

وتعزز بعض نصوص التربية الإسلامية الفجوة بين الرجل والمرأة حينما يعرض الكتاب المدرسي لواجبات المرأة التي تكاد تنحصر واجباتها على شؤون بيتها، أما واجبات الرجل فتشمل الوظائف كلها خارج البيت. أما دروس العبادات فتكاد مخرجاتها تقتصر على الحفظ دون أن يتحول المحفوظ إلى تفكير وسلوك.

يحتاج التعليم المدرسي إلى ثقافة تأصيل المصطلحات والكلمات لكي يتخرج الطلبة وهم قادرون على التأصيل والتعليل للظواهر الفكرية والاجتماعية، فالفجوة واسعة بين جيل يحفظ، وجيل يحفظ ويفهم. إن الحصة المدرسية التي تلتزم بمضمون الكتاب المدرسي دون أن يربط المعلم مضمون الحصة بالمجتمع خارج أسوار المدرسة لا تستحق أن تكون في الكتاب المدرسي.